ومكتبة الطبيب ولغته

آراء جليلة لزعيم السوريين الأكبر

الدكتور عبد الرحمن شهبندر

(الدكتور شهبندر)

. . . . وكان موعدنا قبل أن تذوب الشمس ، وقبل أن يسدل الليل على وجهها الستار . وكان « اللقاء » فى تلكم الحجرة التى أفردها الدكتور الجليل فى عيادته لاستقبال أضيافه ، ويا لله ! كيف بقى لها ذلك المظهر البهى والرونق السنى ، بينما تبلغ الزهادة فى صاحبها حد الترفع على الظواهر التى يتعشقها الزعماء ويحرص عليها جهدهم طائفة من وزرائنا السابقين ! تلك هى الأرائك تحتضنها من حافتيها أصص الرياحين ، وهذا هو السيف قد خرج عن طوق قرابه الرابض تحت شفرته يضمهما الجدار . . . . وأى سيف ؟ إنه ذلك الذى جهدت القوة فى تحطيمه وتمزيق صاحبه فاذا بها تقف بعد الحومة اللاحقة دون أن تبلوها بشىء !

فى ذلك اليوم — يوم لقائى بالزعيم الشهبندر — كنت محرراً فى دار الهلال ، وكانت ثورة الأكراد على الأتراك حديث الساعة وقصة العالم الشرقى كله ، وكانت تحفزنى إليه بواعث وحى عميق ، هى أن الدكتور وحده كفيل باذاعة صفحة كاملة عن حياة الثوار ، لأنه حين يتحدث عن الثورات إنما ينصرف عن خيال الشعراء ليفصح عن دوافعها وحالاتها فى منطق الرجل الذى تفيض التجارب عليه بما يعد أسلوبه فى القول عن موقف الظنة ومكانة الشكوك . . .

على أن حديثنا قد ارتفع فى أخريات حلقاته عن مستوى الثورة وأخذ يعبث فى خضم آخر ، واذا بنا قد اقتنصنا حشداً من آراء الدكتور الجليل فى الأدب والعلم ، وذلك ما نقدمه مغتبطين الى قراء « المعرفة » ليستظهروه . .

الأدب القومى

تناولنا فى الحديث مسألة الادب القومى ، وكانت هناك طائفة من الشباب قد خرجت الى الضوء داعية إلى خلق أدب مصرى لا تلمه بالشرق صلة ، ولا تضمه إلى الغرب وشيجة ، فسألت الزعيم رأيه فى ذلك الحديث الطارىء فقال :

« ليس من شك فى أن هذه الفكرة ستقابل من جمهور المتأدبين فى مصر بحماسة أى حماسة وغبطة أى غبطة ، وليس شك فى أن جمهور المتشائمين سيرون فيها وثبة جريئة موفقة ، ولكنى أومن بأن هذه الحماسة سوف لا يمضى عليها طويل وقت حتى يكون حدوثها قد حورته الرياح الى ذرات تذوب بين أليافه ... ذلك أنه ليس فى مقدور أحد — لا فى مصر وحدها — بل فى الشرق العربى كله — أن يخلق أدباً مستقلا فى أمة واحدة ما بقيت لغة الضاد تدعم آصرة القربى بين شعوبها جميعاً .. إن الفكرة التى تفشو فى القاهرة تجد شبيها لها فى دمشق وفى أضرابها من مراكش الى بمباى .. وإن الصوت الذى يهتف به الخطيب فى مصر يجد صداه على ألسنة الجماهير الدارجة فى كل أرض تذوق بنوها حلاوة اللغة العربية الشريفة .

وإن الرسالة الأدبية التى تدبجها يراعة الكاتب المصرى تتلقفها فى الشرق كله عقول تفهمها وقلوب تعيها .

وهذه الروابط مجتمعة لا يجدى معها ما تتحرق عليه هذه الطائفة المثقفة من خلق أدب مصرى بحت ... ولعمرى ، هل يكون أدباً مصرياً بحتاً أن يكتب كاتب رسالة يستطيعها أى واحد من أنداده فى غير مصر ؟

لقد قدرت لهذه الفكرة الموت ، والموت العاجل ، وسترى أن زوالها سيكون حجة جديدة على أن الثقافة العربية ثقافة مشتركة ليس فى مقدور أحد أن يفصم عراها ...

على أن هناك ناحية لا أستطيع أن أعقب عليها بغير الاعجاب والحمد ... تلك هى الناحية التى دعا فيها الشباب الى القصد فى الترجمة — وخاصة ما يعلق منها بالقصة — فأننا على الرغم من حاجتنا إلى نقل معارف الغرب الى لغتنا ، لا نستطيع إلا أن نفصح عن أسفنا الهائل لهذه الجهود الضائعة التى ينطلق بها جمهرة من المتأدبين إلى القصة الغربية ليترجموها .

وفى يقينى أن جهودهم لو انصرفت إلى التأليف القصصى لكان للأدب العربى اليوم ثروة منها تغنيه عن قصة الغرب الحافلة بما فيه نقض لعوائدنا ، وقضاء على ملكات التفكير فينا .

لغة الطبيب

لم يكن من حظى أن أخلق ذلك الموضوع وأن أفتتح أمام الزعيم الطبيب سبيل الخوض فيه ، فليس على من بأس حين أجرد معارفى عن مواطن الطب ، على أن الدكتور قد نفذ إلى ذلك الموضوع من باحة تتصل بالأدب العربى فى كثير من وجوهه ، وفى حشد من شعبه ، وفى مقدورك أن تطلع على ذلك من قول الزعيم :

« لعلك قد لمست مثلى ذلك الجهد الذى تتوفر به جماعة الثقافة العلمية — التى يرؤسها سعادة حسين سرى بك — على جوانب العلم والأدب ، ولعلك أدركت فى مؤتمراتها التى تعقدها كل عام مبلغ الأثر الذى تنفح به الثقافة على ضروبها ، فالحق أنه أثر جدير بالتقدير ، جدير بالاطراء ...

على أن الذى دهشت له أن يتوجه واحد من أطبائنا الأفاضل الى تلك الجماعة المختارة فى إحدى محاضراته ، راجياً منها أن تقره على أن تكون لغة الطبيب فى كتابة بحوثه هى اللغة العامية .. ! لقد مهد الدكتور الفاضل لرأيه بأنه يجب أن تكون بحوث الطب فى متناول الكافة حتى يتعرفوا إلى مزاياه ، ولكنى كرجل عرف مصر وطلع على جوانبها أستطيع أن أصرح بأن اللغة العامية فى مصر ذات لهجات جمة ، وأن لها ضروباً من المفردات قد يتفهم الدقهلى منها مالا يستطيع أن يتحدث به واحد من أبناء أسوان ، بل إنى لأذهب بك إلى مدى بعيد فأصرح لك أن اللغة العامية تتعدد لهجاتها فى المديرية الواحدة ، وفى ذلك مايحول دون إذاعة البحوث الطبية التى سيعنى كاتبها باتباع لهجة واحدة من هذه اللهجات الكثيرة ...

وليس ذلك كل شىء ، فان اللغة الفصحى ستجد من فقدانها فى محيط الأطباء موتاً محققاً لو تحقق مقترح زميلهم .. !

وثمة وجهة أخرى جديرة بالبحث والعناية ، فان اقتصار الأطباء المصريين — لو تحقق مقترح زميلهم أيضاً — على كتابة بحوثهم باللغة العامية لن يشرك معهم أمة شرقية فى تذوق الفائدة التى تشيعها تلك البحوث ، لأن اللغة العربية الفصحى هي السياج الذى يحوط الشرق كله ، ولأن أساليب الكتابة بها على تنوعها واختلافها يدركها كل شرقى ويتذوق ما فيها ، ويستوعب مراميها فى غير جهد وفى غير إملال .

وإنه ليجدر بى أن أقول لك فاخراً أوفر الفخار : إن الأساليب المصرية قد أخذت لها مكانة الطليعة فى كل جانب ، حتى تلك الأساليب التى تحمل بين طياتها غير قليل من الكلمات العامية اللاذعة ، وفى يقينى أن القارىء السورى قد استطاع أن يدرك بسهولة ماتعنيه النكتة

المصرية حين يرسلها الكاتب المصرى فى تضاعيف رسالته ، وفى ذلك أكبر نصر للكتاب المصريين ، فهل هنالك مايدعو — لو تحقق مقترح الطبيب كذلك — إلى أن تقف البحوث العلمية فى هذا الموطن الضيق الذى يريده ؟

على أن هناك أمراً يبعث على الغبطة ويتعهد بالسرور جوانب النفس، وهو أن اقتراح الطبيب الفاضل قد أتى حتفه، وأن رقدته الطويلة التى ركن منها إلى اليوم فى قبر عميق، قد دلتنا على أن زعماء الثقافة فى مصر قدهالهم مافيه من ضرر، وما فيه من عقم فطوحوا به إلى الهاوية مغتبطين .. »

مكتبة الطبيب

رأيت الدكتور الزعيم قد نفذ إلى باحة الطب ، وهو الذى يحمل لواءه صحبة القليلين من قادته فى الشرق ، فرغبت إليه أن يظهرنى على النصيحة التى يرى فى إذاعتها ما يحدى على الأطباء فى صناعتهم بالسداد ، فاجتمعت هذه النصيحة الثمينة فى قوله :

« فى مقدور الطبيب وحده أن تكون نصائحه التى يزجيها إلى الناس من ذلك النوع الصريح من اللف واللجج ، فقد تعود النصح وحفلت حياته بالصراحة فيه . . . على أننى حين أفكر أن النصيحة التى تبتغى إلى أن أفصح عنها سوف يقتصر أمرها على الأطباء وحدهم . . حين أفكر فى ذلك ، أرى أن رأسى قد ازدحمت من هذه النصائح بسيل فياض ، ولكن خير ما أبثه لهم من نصح ، إنما يعلق بمكتبة الطبيب وحدها ...

إنى أدعو الطبيب إلى القراءة والاسراف فيها — وخصة مايتصل منها بعمله — وأدعوه أن تكون له مكتبة طبية شاملة وافية يرجع اليها فيما يعسر عليه من معضلات صناعته الدقيقة .

وكذلك ألحف على الطبيب أن يجدد مكتبته كل عام ، فيزع عنها تلك الأسفار التى تحمل الآراء العتيقة فى الطب ، ويزودها بما جد فى فروعه من آراء العلماء المحدثين ، لأن النظرية الطبية لاتلابس النظريات الأدبية فى وجهة الخلود ، وإنما هى خاضعة أكبر خضوع لحالة التطور ، والتطور السريع » ؟

على عامر

اقرأ فى العـــدد القادم

حديثاً هاماً مع حسان فلسطين

الاستاذ أبى الانبال اليعقوبى